يعيد كتابة تاريخ البشرية

بقلم جورج طرابيشي

المحاولة التي أخذها نجيب محفوظ على عاتقه في « أولاد حارتنا » (١) محاولة جبارة بلا أدنى ريب . وبغض النظر عن مدى ما خالفه من توفيق فيها ، فسنقول ان ما أراده محفوظ في « أولاد حارتنا » هو أن يعيد كتابة تاريخ البشرية منذ أن وجد في الكون الانسان الاول ، وهذا لا يعني بالطبع أن محفوظ استحال الى مجرد مؤرخ ، فهو يظل في « أولاد حارتنا » كما في معظم أعماله الاخرى روائيا مؤرخا . والفارق بين المؤرخ والروائي المؤرخ كبير . ولا يكمن هذا الفارق كما قد يخيل لبعضنا في أن المؤرخ يعرض الاحداث من غير ان تكون له وجهة نظر ، في حين ان الروائي لا يهمه من عرض الاحداث غير توكيد وجهة نظر معينة . فمثل هذا المؤرخ الذي ليس له من وجهة نظر لا وجود له . وكل ما هنالك ان العالم الذي يقدمه لنا المؤرخ هو عالم موضوعي ، تتحدد موضوعيته بمدى رغبة التاريخ في أن يكون علما . في حين أن العالم الذي يقدمه لنا الروائي المؤرخ هو عالم ذاتي ، وذلك بمقدار طموح الرواية ، حتى ولو كانت مادتها تاريخية ، الى أن تكون فنا . ومن هنا ، وبقدر ما يحرص المؤرخ على عمومية العلاقات التي يقيمها بين الاحداث والظواهر والشخصيات التاريخية ، يحرص الروائي على أن تكون هذه العلاقات شخصية وخاصة . والسيطرة على المادة التاريخية في كلا المنظورين تظل المقياس الرئيسي لنجاح المشروع ، التاريخي والروائي على حد سواء ، وان كان من المرجح ان يلاقي الروائي من العنت اكثر مما يلاقي المؤرخ ، نظرا الى ان المادة التاريخية هي بطبيعتها أقرب وأصلح الى التناول الموضوعي .

وقبل ان نتحدث عن مدى توفيق نجيب محفوظ في السيطرة على مادته التاريخية ، يجدر بنا أن نتعرف هذه المادة وأن نعرفها .

قلنا ان محفوظ اراد أن يعيد كتابة تاريخ الانسانية منذ ان كان الانسان الاول . وما الانسان الاول الا آدم الذي اليه جميعا ننتمي ، في نظر التفسير الديني للتاريخ . ولكن هل من الممكن ان نتحدث عن آدم من غير ان نتحدث عن الله وعن الارض وعن ملائكة السماء وابليس وعن الحلم المستحيل في استعادة الفردوس ؟ ولكن كيف يمكن ان يكون الله والملائكة ، وابليس وآدم شخصيات في رواية ؟ أي كيف يمكن الحديث عنهم من غير انتهاك للقدسيات ؟

لقد وجد نجيب محفوظ الحل في تلك « الحارة » الواقعية ، ـ الاسطورية ، الحارة الحقيقية ـ الرمز ، المحدودة واللامحدودة في آن واحد زمانيا ومكانيا . حارة مثلها مثل جميع حارات القاهرة في اواخر القرن التاسع عشر ، مكتظة بالسكان ، وسكانها يسعون الى الرزق بكل السبل التي يمكن ان يخطر على بال : فتوات ، عاهرات ، حشاشون ، قتلة ، هواة ، باعة خضار ، رعاة ، نجارون ، أسطوات ، حكوانية ، نظار ، خدم ، بساتنة ، باعة فول ، وطعمية ، أصحاب مقاه ، مؤجرون ومستأجرون . والحارة معروفة باسم مؤسسها ، الجبلاوي ، الذي تحدى الوحشة وقطاع الطرق وشاد بيتا كبيرا في خلاء من صحراء المقطم . وحول هذا البيت الكبير امتدت الحارة وعمرت ، وفيها تكاثرت ذرية الجبلاوي وبنت وازدهرت ، وفيها ايضا ذلت وانقسمت واضطهد افرادها بعضهم بعضا .

وحارة الجبلاوي مع ذلك ليست كسائر الحارات . ولئن كان ابناؤها أنفسهم يقولون انه اذا كان الجبلاوي أصلها فانها هي أصل مصر أم الدنيا ، فنحن بدورنا لا يخالجنا شك في أن هذه الحارة ليست بحارة ، وفي انها اكثر من حارة . حارة هي أم الحارات ، كما ان حواء هي أم البشر . حارة وجدت من العدم ، في الخلاء ، تماما كما وجدت الارض من العدم ، في الخلاء . حارة أوجدها ذلك الجد الاكبر ، الجبلاوي ، تماما كما أوجد الله الارض . وكما أن البشر لا هم لهم ولا شاغل منذ سقطة آدم الا ان يعودوا الى الفردوس الذي طردوا منه ، كذلك فان اولاد حارة الجبلاوي لا هم لهم ولا شاغل الا ان يرضى عنهم الجبلاوي فيدعوهم الى الاقامة في « البيت الكبير » الذي وجد قبل ان توجد الحارة والذي يتصورون ان الحياة فيه ستكون فرحا دائما بلا كدح ولا كد في حديقته الغناء الوارفة الظلال . ولكن هل يرضى الجبلاوي ؟ وكيف السبيل الى مرضاته ؟

هل يرضى الجبلاوي ؟ ولكن هل الجبلاوي غاضب ؟ اجل ، انه لغاضب وغضبا شديدا . وقد بلغ به الغضب مبلغا لم يحجم معه عن طرد فلذات كبده من بيته الكبير حيث الراحة والسعادة والغبطة الدائمة ، قاضيا عليهم بذلك ان يعيشوا في الهم والشقاء والدمع والدم تحت العراء في الخلاء الواسع حول البيت الكبير .

ولكن لم غضب الجبلاوي هذه الغضبة المضرية ؟ القصة كلها تتلخص في أنه استدعى ذات يوم ابناءه جميعا ، ادريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم ، وقال لهم ان الاوان قد آن ليتولى أحدهم ادارة الوقف بدلا منه . ولم يخالج احد الشك في ان اختياره سيقع على ادريس ، بكر أولاده . ولكنه ، وعلى دهشة من الجميع ،

---

(١) صدرت اخيرا الطبعة الثانية لهذه الرواية عن دار الاداب ، بيروت .

سمى أدهم . وثارت كرامة ادريس : كيف يخضع ، هو صاحب الحق في البكورية وابن المرأة الحرة ، لادهم ابن الجارية السوداء ؟ وتمرد متحديا قرار والده . فما كان من هذا الا ان طرده من البيت ، الى الابد ، مهددا بالهلاك من تسول له نفسه مساعدته على العودة اليه . وفي الخلاء عاش ادريس حياة الشقاوة بكل ما في الكلمة من معنى : سكر وعربدة وفحش واعتداء على الناس وعلى أموالهم . وكل ذلك من غير أن يتجرأ أحد على التصدي له لانه « ابن الجبلاوي » . أما أدهم فقد تسلم ادارة الوقف مزهوا فرحا ، ولم يكن هناك ما ينغص عليه هناءه الا شعوره بانه مسؤول الى حد ما عن المآل الذي صار اليه أخوه ادريس . وذات يوم وقعت أنظاره على جارية جميلة فأحبها وبنى بها وحملت منه . وكان اسمها أميمة . وازداد هناؤه هناء ، وصار يقضي معظم أوقاته في حديقة البيت الكبير ممتعا عينه برؤية الازهار ، مشنفا أذنه بتغريد العصافير ، مناجيا أميمة ومياه النهر الرقراقة ولكن تنعمه هذا لم يدم به طويلا . فقد جاءه ذات يوم ابن أبيه ، ادريس ، كسير النظرة ، وديع العبارة ، ممزق القلب ، يرجوه أن يغفر له وأن يمحضه مودته من جديد . ولم يكن ادهم ينتظر الا فرصة كهذه ليحرر ضميره من وطأة الشعور بالاثم تجاه أخيه . ولكنه تراجع مع ذلك مذعورا حين أبان ادريس عن حاجته . فادريس لا يرجوه ان يصلح ذات البين بينه وبين والدهما لانه يعلم سلفا ان مثل هذه المحاولة فاشلة وان والدهما يغفر كل شيء الا أن يهينه احد بتمرده عليه ، ولكنه يريد بالمقابل أن يطمئن على مستقبله بعد أن خسر ماضيه وحاضره ، فهو سيصبح أبا عما قريب ويريد أن يطمئن الى مصير ذريته . وكل رجائه من أخيه ان يعرف ما اذا كان أبوهما قد حرمه من حقه في الميراث ، ولا طريق الى معرفة ذلك الا بمراجعة حجة الوقف الموجودة في مجلد ضخم في الخلوة المتصلة بمخدع الاب ، تلك الخلوة التي لم يسمح الجبلاوي لاحد قط بالدخول اليها . وبالرغم من كل ارادة أدهم الطيبة ، لم يستطيع الا أن يرفض طلب أخيه لان دخول الحجرة يعني عصيان ارادة الاب مثلما يعني الاطلاع على الحجة سرقة سر يحرص الاب على صونه .

ولكن بذرة الشك قد زرعت مع ذلك في قلب أدهم ، وحين أطلع زوجته أميمة على تفاصيل مواجهته مع ادريس شجعته هذه بدورها على انتهاك حرمة الخلوة ، لا للاطمئنان على مصير ذرية ادريس فحسب ، بل ايضا على مصير ذرية أدهم نفسها التي ما تزال في أحشائها جنينا . وتحت ضغط ادريس وأميمة معا أقدم أدهم على الخطوة النكراء . فدخل الخلوة سرا واقترب من المجلد الكبير ليطالع ما فيه على ضوء الشمعة . ولكن ما كاد ناظراه يفكان حروف الكلمة الاولى حتى فوجىء بالجبلاوي يسد باب الخلوة بجسمه الكبير . وكانت لحظة رعب عظيمة ، لم يفق منها أدهم الا على صوت والده يطرده وزوجته من البيت الكبير .

حسرة وندم وبكاء . ولكن ارادة الجبلاوي قضاء لا راد له. وعرف طريدا الفردوس نفس المصير الذي عرفه من قبلهما ادريس . وكان اول ما استقبلهما في الخلاء المحيط بالبيت الكبير ضحكة تشف وانتقام من ادريس . ادريس الذي تظاهر بالمسكنة والتوبة حتى يقود أدهم الى التهلكة . ولقد قاده اليها . ادريس الذي لم يتبدل ولن يتبدل : الشر مجسدا . وسوف يحاول أدهم هو الاخر ألا يتبدل : لقد كانت زلته عرضا عارضا في حياته ولن يكون له من هم الا أن يحظى من جديد برضى والده فيعود الى البيت الكبير حيث تمر الساعات كالاحلام السعيدة في الحديقة الغناء .

وابتنى أدهم له ولزوجته كوخا وضيعا وراح يكسب قوته وقوتها من بيعه الخيار على عربة يد ، ترافقه أينما اتجه ضحكات ادريس المتشفية . وفي الهم والالم ايضا وضعت له أميمة توأمين : قدري وهمام . ونشأ الطفلان على حلم والديهما بالرجوع الى البيت الكبير وحين شبا عن الطوق ، امتهنا الرعي رزقا لهما . وكان همام شبيها في دمائة خلقه بوالده ، اما قدري فكان اشبه بعمة ادريس ، وليس من قبيل الصدفة ان يكون قلبه قد تولع بهند ابنة عمه .

كان قد مر عشرون حولا على طرد أدهم وأميمة من البيت الكبير حين جاء رسول من الجبلاوي يطلب الى همام ان يذهب الى مقابلته . وعرض الجبلاوي على همام ، كما هو متوقع ، أن يلتحق بالبيت الكبير مكافاة له على حسن أخلاقه . واكل الحسد والغيرة قلب قدري ، فما كان منه الا ان أقدم على قتل اخيه همام . وعرف أدهم ألما لم يعرف مثله حتى عندما طرد من البيت الكبير ، ألم الاب المفجوع بابنه . وشاخ في ساعة واحدة ما لا يشيخه الانسان في عشرين عاما . وسقط طريح الفراش وداهمته اولى سكرات الموت . وفيما هو على هذه الحال فتح باب الكوخ وأطل منه الجبلاوي بطلعته المهيبة وقال له: لقد تألمت بما فيه الكفاية ولقد غفرت لك وسوف يكون الوقف لذريتك .

وودع الحياة أدهم فأميمة فادريس . وعاد قدري بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعهما أطفال . وخالطوا غيرهم وتكاثروا . وانتشر العمران بفضل أموال الوقف وارتسمت في صفحة الوجود معالم حارة الجبلاوي الحارة التي هي امتداد لصحراء المقطم ، حارة ككل الحارات ولا كغيرها من الحارات في آن واحد .

تلكم هي قصة ظهور حارة الجبلاوي الى الوجود ، وبتعبير ادق قصة أدهم مؤسس تلك الحارة . وسوف تكون لابناء أدهم وأحفاده قصصهم هي أيضا ، ولسوف يختار نجيب محفوظ لنا منها أربعا قصص جبل ورفاعة وقاسم وعرفه . وقبل ان ننتقل الى هذه القصص لنتوقف قليلا عند قصة أدهم .

ان أدهم كما رأينا هو الاب الاول لاولاد حارة الجبلاوي جميعا ، مثله مثل آدم بالنسبة الينا نحن بني آدم . ولا مجال للشك : ان ادهم ليس قرين آدم فحسب ، بل هو هو آدم . الاسم متشابه والقصة واحدة والبداية والنهاية واحدة . ادهم ابن الجبلاوي ، والله هو الذي « جبل » آدم من طين ونفخ فيه الروح وسواه بشرا . وقد جمع بعد ذلك الملائكة وقال لهم : « اني جاعل في الارض خليفة » . وحين سمي آدم كانت دهشتهم عظيمة ، دهشة أبناء الجبلاوي حين سمي أدهم . وكما تمرد ادريس على ارادة الجبلاوي ، تمرد ابليس على مشيئة الله ، « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . ادريس استكبر ان يخضع لابن الجارية هو ابن الحرة ، وابليس استكبر ان يسجد هو الملاك المخلوق من مادة السماء لآدم المجبول من طين الارض : « قال يا ابليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » . وعلى وزن ابليس جاء اسم ادريس ، ومثله ايضا كان أول من طرد من « البيت الكبير » ليصبح مضلة الغاوين اما آدم فقد استقر به المقام في الجنة وعرف الهناء مع حواء ، أم البشر . ومن « الام » هذه اشتق نجيب محفوظ اسم « أميمة » . وكما سوّل ابليس لحواء ان تغري آدم بالشجرة المحرمة لتذوق معه من ثمارها ، كذلك التقى ادريس وأميمة على اغراء أدهم بانتهاك حرمة الخلوة للاطلاع على سر الجبلاوي . في كلتا الحالتين كانت الرغبة في معرفة ما لا ينبغي ان يعرف سبب التهلكة والطرد من « البيت الكبير » .

ومن يوم السقطة بدأ شقاء الانسان على الارض وبدأ معه الحلم الاكبر في العودة الى« الحديقة » الوارفة الظلال . وفي الهم والدم أنجبت حواء قابيل وهابيل ، كما أنجبت أميمة قدري وهمام . ومن التشابه بين الاحرف الاولى بين هذه الاسماء استغنى نجيب محفوظ عن كل تشابه اخر . وكما كان هابيل وديعا دمث الاخلاق ، كان همام. وعلى عكسهما كان قابيل وقدري . وكما اصطفى الله بمحبته هابيل ووعده بالجنة ، اصطفى الجبلاوي همام ودعاه للاقامة في البيت الكبير . وكما قتل قابيل هابيل غيرة وحسدا على مقامه عند الله،

قتل قدري هماما غيره وحسدا على مقامه عند الجبلاوي . وكما أن الله لم يغفر لآدم زلته الا بوم ذاق الالم المرير مع مقتل ابنه ، كذلك فعل الجبلاوي مع ادهم . وكما نمت البشرية وتكاثرت من نسل آدم، نمت حارة الجبلاوي وتكاثرت من نسل أدهم والذريتن كلتاهما حملتا اللعنة الاولى : ابليس لا هم له الا ان يغوي ذريه قابيل ليكون كل البشر قابيلا ، وادريس لا هم له الا ان يغوي ذرية قدري حتى يكون جميع اولاد حارة الجبلاوي اشقياء فتوات مثل قدري . انه الصراع الازلي بين الخير والشر ، ولن تكون قصة البشرية الا قصة هذا الصراع .

وقصة البشرية هي ما يريد نجيب محفوظ ان يرويه . فصتها من الانسان الاول حتى الانسان الاخير ، ومن خلال اللحن الاساسي الذي يتكرر فيها جيلا بعد جيل : الصراع بين الخير والشر ، بين آدم وابليس ، بين ادهم وادريس ، بين الطيبين الوديعين المسالمين من أولاد حارة الجبلاوي وبين الاشرار المتاكين القتلة من فتوات حارة الجبلاوي . فهل سيستطيع الانسان ان ينفذ نفسه ؟ هل سيتمكن أولاد حارة الجبلاوي من التحرر من سيطرة الفتوات ومن استرداد حقوقهم في « الوقف الكبير » ؟

ان الحلم سيكون أبدا واحدا مهما تعددت الاجيال وتكاثرت : حلم آدم في الفردوس المفقود ، حلم ادهم في حديقة البيت الكبير . وكما دفع آدم وادهم ثمن زلتهما هما وشقاء وكدحا ، سيدفع كل جيل ثمنا مماثلا . والنتيجة مع ذلك لن تكون موثوقة ، فنسل ادريس لا هم له الا أن يسرق الاجيال تضحياتها وآلامها وآمالها . ولسوف يكون هناك دوما من تسول له نفسه بأن يكون استمرارا لنسل ادريس ولروحه ، لا لان الشر مستحب في حد ذاته ، بل لانه وسيلة مسيطرة وطريق للامتيازات .

وها هي حارة الجبلاوي ، بعد موت ادهم والرعيل الاول من ذريته ، لقمة سائغة في شدق الاشرار ، يطمع بها الطامعون مع انه لا يكاد يكون فيها ما يستاهل الطمع به . فاطفالها اشباه عراة ، يملأون الجو بصراخهم والارض بقاذوراتهم ونساؤها يقشرن البصل ويتبادلن السباب والشتائم . ومعارك باللسان او بالايدي تنشب هنا وهناك . و « الذباب لا يضاهيه في الكثرة الا القمل ، فهو يشارك الاكلين في الاطباق والشاربين في الاكواز ، يلهو في الاعين ويغني في الافواه كانه صديق الجميع » . وبالاضافة الى هذه الشرور والمظالم يأتي ارهاب الفتوات ليتوج مآسي المارة . اذ ما ان يجد الشاب في نفسه جرأة او في عضلاته قوة حتى يندفع الى التحرش بالآمنين والاعتداء على المسالمين ، ويفرض نفسه فتوة يأخذ الاتاوات من العاملين ويعيش ولا عمل له الا الفتونة ، ويضع نفسه في خدمة الافندي ناظر الوقف لتحطيم كل من تسول له نفسه رفع صوت الاحتجاج .

أجل ، لقد وعد الجبلاوي أدهم بان يكون الوقف لخير ذريته . ولكن الجبلاوي شاخ واعتزل ، وحل محله الناظر . والناظر عدو الوقف وقفه وخص نفسه بموارده وأحاط سلطانه وامتيازاته بحماية فتوات المارة وأشرارها . وازداد عدد ذرية أدهم وازداد بذلك فقرهم وبؤسهم . فكان الواحد يكد ويكدح نظير لقيمات ، وكان عليه فوق ذلك ان يقدم الاتاوة للفتوات مهانا لا مشكورا وكان الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوقه الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع . اما الاهالي فتحت الاقدام . ومن حين الى آخر كان احدهم يئن بالشكوى ويصيح باتجاه « البيت الكبير » على غير مسمع من الفتوات:

ـ أين انت يا جبلاوي ؟

بالفعل أين هو الجبلاوي ؟ لقد اعتزل ضمن أسوار بيته الكبير، فما عاد يراه ولا يسمع عنه أحد . وولد كثيرون وماتوا من غير أن يروه قط . وانتاب بعضهم الشك في ان يكون ما يزال على قيد الحياة فلو كان على قيد الحياة ، فهل يرضيه ان تعاني ذرية ادهم التي هي ذريته ما تعانيه من ظلم واضطهاد ؟ ألم يقل لادهم ان الوقف سيكون لخير ذريته ، فما باله وكأنه لا يعلم ان ذرية ادهم هي آخر من يستفيد من أنوقف ؟

ـ أين أنت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي يرى ويسمع وهو غير راض هذا على الاقل ما يؤكده جبل ، ذلك الفتى من آل حمدان من نسل آدهم ، مؤكدا في الوقت نفسه أنه راى الجبلاوي وكلمه وأن الجبلاوي قال له ان آل حمدان هم أسرتي ولهم في وقفي حق يجب ان يأخذوه ولهم كرامة يجب أن تصان وحياة يجب ان تكون جميلة وانهم بالقوة يهزمون البغي ويستردون حقهم ويحيون الحياة الطيبة .

وانتف آل حمدان حول جبل وتكاتفوا وقاتلوا وهزموا البغي واستردوا حقهم المهضوم . وعاشت حياة الجبلاوي حقبة من الزمن سعيدة . ولكنها لم تطل . فقد عادت البلوى كما كانت وأشد . ذهب فتوات وجاء فتوات . ومضى ناظر وأتى ناظر . والاحوال لا تزداد الا سوءا . وارتفعت من جديد أصوات من يرزحون تحت النير :

ـ أين أنت يا جبلاوي ؟

وتدخل الجبلاوي مرة ثانية . وكان رسوله هذه المرة رفاعة . وفعل رفاعة ما فعله من قبله جبل وان بوسائل اخرى ورتعت المارة في بحبوحة من الهناء لبرهة من الزمن . ولكن المأساة تكررت من جديد وارتفعت معها أصوات المعذبين :

ـ أين أنت يا جبلاوي ؟

وللمرة الثالثة تدخل الجبلاوي وأرسل قاسم . وأدى قاسم الرسالة كما أداها من قبله جبل ورفاعة . وظنت الحارة أنها ودعت الارهاب والشقاء الى الابد . ولكن ما كادت عجلة الايام تدور حتى دارت الاحوال معها من جديد وجاء فتوات جدد وناظر جديد وساموا الناس ضروب العذاب . وارتفعت أصوات المكروبين مرة أخرى :

ـ أين أنت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي كان قد أنذرهم : انه لن يرسل بعد قاسم رسولا آخر ، وعليهم أن يحافظوا الى الابد على ما حققه لهم قاسم . ولكن قاسم مات ، وبموته ضاع كل شيء الا ذكراه . ذكرى طيبة ، لكن محزنة . ذكرى الحقوق التي استردت والكرامة التي استعيدت . ولكنها مجرد ذكرى . والفتوات يرتعون ويعيشون فسادا ، والناظر يكدس الذهب فوق الذهب ، وأهل الحارة يئنون تحت السياط والنبابيت والارهاب :

ـ أين أنت يا جبلاوي ؟

ولكن الجبلاوي فعل كل ما ينبغي عليه ان يفعله . وما الفائدة من أن يكرر ما فعل ؟ أرسل على التوالي جبل ورفاعة وقاسم ، ولكن ذريته لبثت من بعدهم على ما كانت عليه فبلهم الا فلتتدبر أمرها من الان فصاعدا بنفسها ، وليكن لها من ذكرى جبل ورفاعة وقاسم ومن حياتهم ومبادئهم ما يستنهض هممها ويحرك فيها روح التمرد والتضحية.

جبل ورفاعة وقاسم . أولاد طيبون اخيار من حارة الجبلاوي . آلمهم وحز في نفوسهم ما آلت اليه مصائر الحارة وأهلها ، فتسلحوا بالعزم والايمان وبركة الجبلاوي وتصدوا للشر والارهاب وقضوا ، لحين من الزمن ، على سطوة الفتوات والنظار .

جبل ورفاعة وقاسم . رسل الجبلاوي الى ذرية الجبلاوي . والجبلاوي هو الذي شاد « البيت الكبير » في الخلاء وأوجد الحارة واولاد الحارة . والله ايضا هو الذي جبل آدم وخلق الارض وما عليها من العدم . ويوم عصاه آدم طرده من الجنة ليكفر عن زلته في الارض وأدى آدم الثمن ألما ودما الى ان فتحت له أبواب السماء من جديد . ولكن ذرية آدم لبثت في الارض وعليها ان تكفر بدورها . وحتى لا تنسد في وجهها ابواب الامل أرسل الله اليها على التوالي أنبياءه العظام الثلاثة : موسى وعيسى ومحمدا . جبل ورفاعة وقاسم . ولا يأخذن

الشك القارىء : فالمسالة ليست مسالة رموز ولا تشابه ، وجبل ورفاعة وقاسم هم هم موسى وعيسى ومحمد . ولقد تقيد نجيب محفوظ تقيدا دقيقا بالتفاصيل البارزة في حياة الانبياء العظام ، وان كانت مصادره التي اعتمدها لذلك أحادية الجانب .

ولكن بقدر ما حالفه التوفيق في التوازي الذي اقامه بين قصة آدم وقصة آدهم خانه التوفيق في التوازي الذي اقامه بين الانبياء الثلاثة من جهة وبين جبل ورفاعة وقاسم من الجهة الثانية . والسبب في ذلك ، على ما نعتقد ، واضح بسيط : فقصة آدم وخلقه وسقطته وطرده وتكفيره هي فعلا قصة ، أي مادة مشتملة في ذاتها على جميع العناصر الدرامية ، ورموزها تشرح نفسها بنفسها من غير حاجة الى التدخل من الخارج . وبالمقابل فان حياة الانبياء الثلاثة اقرب الى السيرة منها الى القصة ، وهي غير قابلة للانفصال عن المبادىء التي جاؤوا بها . وهذا معناه أن أي محاولة لسرد حياتهم ستبقى محاولة ناقصة بل مشوهة اذا لم تتخذ خلفية لها مجمل العقائد الدينية التي بشروا بها . وهذا ما يتطلب تدخلا مستمرا من الكاتب ليفسر ويشرح ويعلق ويربط . ولا غرو بعد هذا ان يكون نجيب محفوظ قد تحول الى مجرد مؤرخ في سرده حياة جبل ورفاعة وقاسم بعد ان اثبت مقدرته في قصة ادهم على ان يكون روائيا مؤرخا . وليته كان ايضا مجرد مؤرخ ، لانه لو كان كذلك لاستطاع ان يعطي حياة الانبياء الثلاثة ابعادها العميقة الفعلية ، ولما جاءت صورة هؤلاء الانبياء صورة مهزوزة مبتورة هي دون الواقع كمالا وامتلاء وعمقا واكثر تسطيحا وأحادية بعد . ولكن نجيب محفوظ ، المحرج أمام المادة التاريخية التي اخذ على عاتقه ان يعالجها ، والمفيد برغبته في تحويل هذه المادة الى مادة درامية ، عجز عن أن يكون مجرد مؤرخ بعد أن عجز عن أن يكون روائيا مؤرخا . ومن هنا كان شعور القارىء بأن نجيب محفوظ لم يستطع ان يكون على مستوى تلك المادة التاريخية ، وبانها تتجاوزه باستمرار ، وبانه لم يتمكن من ان يضيف اليها ابعادا جديدة او شخصية .

لناخذ على سبيل المثال قصة جبل . ان كل ما استطاعه محفوظ هو انه اقتبس عن موسى اسمه والمعالم البارزة في حياته كما تقصها التوراة من غير ان يستطيع في الوقت نفسه ان يعطي تلك الشخصية أبعادها النبوية والتاريخية ، ومن غير ان يقدم تفسيرا مرضيا لا من وجهة نظر مادية ولا من وجهة نظر مثالية وكل ما تبقى من موسى بريشة نجيب محفوظ جملة من أحداث ووقائع لا تدع لنا مجالا للشك في أن جبل هوهو موسى ، ولكنها لاتضفي عليه من أبعاد أعمق من تلك التي قد نجدها في بطاقة الهوية فيما لو كان لموسى سجل مدني . لقد تقيد محفوظ على سبيل المثال بالقصة التوراتية عن ولادة موسى ونشاته الاولى . فالهانم ، زوجة الناظر ، قد التقطت جبل ، وهو في طور الرضاعة ، من حفرة مليئة بمياه الامطار ، وربته في كنفها في بحبوحة من العيش . ونحن نذكر جميعا أن موسى عرف مصيرا مشابها ، هو في الاصل مصير جميع الابطال الدينيين القوميين لدى الشعوب المتمدينة البدائية على حد ما يقول لنا فرويد في دراسته المشهورة « موسى والتوحيد » . ومهما يكن موقفنا من القصة التوراتية فاننا لا نستطيع الا أن نلاحظ انها غنية الرموز ، عميقة الدلالات ، بالمقارنة مع الطابع المجاني لصيغة نجيب محفوظ عنها . فقصة نجيب محفوظ عن طفولة جبل الاولى ليس لها ما قبلها او ما بعدها . انها مجرد تفصيل عديم الدلالة وقابل كل القابلية لان يحذف . ومحفوظ لم يات بذكره الا لتوكيد التشابه بين جبل وموسى . ولكننا اذا عدنا الى القصة التوراتية وجدنا أن طفولة موسى الاولى حاسمة الدلالة لانها هياته لان يكون ذلك البطل الديني القومي الذي كانه . فلقد هاجر يوسف واخوته كما نعلم الى مصر وسيطروا على اهراءاتها وتحكموا بقوت الشعب المصري . وكان من الطبيعي ان يأتي رد فعل المصريين عنيفا قاسيا بعد ان اكتشفوا انهم اصبحوا ، وهم في بلادهم اسرى ارادة الغرباء . ومن هنا كان اضطهاد الفراعنة للعبريين ، والامر المشهور الذي اصدره فرعون بقتل جميع مواليد العبريين من الذكور وحدث ان ولدت امراة من بيت لاوي (ليفي) ذكرا بهي الطلعة فاشفقت عليه من القتل ، فوضعته في سفط من البردي وخباته بين الحلفاء على حافة النهر . ونزلت ابنة فرعون الى النهر لتستحم فراته ورقت له وجاءته بمرضع (هي أم موسى) وربته في كنفها . ولا ريب في أن نجيب محفوظ قد وفق عندما جعل منقذة جبل زوجة الناظر كبديل عن ابنة فرعون . ولكن السياق الذي اختاره لقصته جعله يغفل اغفالا تاما السبب الذي هجر من اجله جبل الرضيع في « حفرة مليئة بمياه الامطار » . ومن هنا كان شعورنا بمجانية القصة برمتها في « أولاد حارتنا » . فبدون واقعة اضطهاد المصريين للعبرانيين (١) والامر الذي اصدره فرعون بقتل مواليدهم الذكور ، لا يبقى اي معنى لقصة هجران موسى ـ جبل عن حافة النيل أو في حفرة مليئة بمياه الامطار .

وليست المجانية هي العيب الوحيد في الموازاة التي حاول نجيب محفوظ ان يقيمها بين جبل وموسى . وليس التسطيح هو العيب الثاني الوحيد . فهناك ايضا ما نسميه بتباطوء النفس الدرامي للرواية او حتى اختناقه . والنفس الدرامي في أي رواية يتباطأ أو يختنق اذا شعر القارىء انه يعرف سلفا كل الاحداث وتطورها وخاتمتها . والحال ان القارىء لرواية نجيب محفوظ ما يكاد ينتبه الى التطابق في الهوية بين جبل وموسى حتى يصبح قادرا على توقع تطور مجرى الاحداث برمتها . فكما ان موسى رأى مرة رجلا مصريا يضرب عبريا فانتصر لهذا الاخير وقتل المصري وطمره في الرمل ولاذ بالفرار ، كذلك فان جبلا سيشاهد فتوة من الفتوات يضرب شيخا من آل حمدان فيقتل الفتوة ويطمره في التراب ويولي الادبار . وكما ان موسى هرب الى ارض مديان وجلس عند النهر يراقب بنات كاهن مديان وهن يملأن الجرار فلاحظ مضايقة الرعاة لهن فقام اليهم وحامى عنهن واستقى لهن وفي خاتمة المطاف تزوج من احداهن ، كذلك فان جبل سيهرب الى سوق المقطم وسيلحظ فيها ازدحاما حول عين الماء وفتاتين يضايقهما الشبان فيشتبك معهم ويستقي للفتاتين وفي خاتمة المطاف يتزوج احداهما .

ولو أردنا ان نتتبع التوازي المسطح بين قصتي موسى وجبل ، لطال بنا الشوط الى حد الملل . والحق ان اضطرار نجيب محفوظ الى التقيد بالمادة التاريخية وهي ههنا ثقيلة باهظة قد ينوء اي روائي بحملها مهما كان عبقريا ـ قد افقده القدرة لا على اخفاء ابعاد جديدة على شخصياته التاريخية فحسب بل حتى على رسمها بابعادها الفعلية المعروفة . ولعله كان في الامكان ، بالرغم من ذلك ، انقاذ نفس الرواية الدرامي عن طريق استخدام الرموز ، لكن الرموز في « أولاد حارتنا » معدومة الوجود ، ومستحيلة الوجود أصلا بالنظر الى التطابق الكامل ووحدة الهوية بين شخصية موسى التاريخية وشخصية جبل الروائية وفي القسمين التاليين من الرواية ، اي في قصتي رفاعة وقاسم ، لنا يكف النفس الدرامي عن التباطوء والتثاقل الى درجة الانعدام التام ، لان العيوب التي اشرنا الى وجودها في الموازاة المسطحة بين جبل وموسى لن تني تزداد بروزا واستفحالا في قصتي رفاعة وقاسم . واذا ظل القارىء حريصا ، بالرغم من ذلك ، على متابعة مطالعة الرواية ، فهذا لسبب لا دخل له لا بالرواية ولا بدراميتها : رغبة القارىء في أن يعرف كيف سيحول نجيب محفوظ المادة التاريخية ، وكيف سيحورها لتتلاءم ومنطق بناء « حارة الجبلاوي » . وبعبارة اخرى ، ان ما سيستاثر باهتمام القارىء ليس « فنية » نجيب محفوظ وانما براعته

---

(١) بديهي ان التوراة لا تذكر علة هذا الاضطهاد : تحكم ذرية يوسف بقوت الشعب المصري .

والفارق كبير بين الفن والبراعة كالفارق بين المسرح ومسرح العرائس فالخيوط التي تحرك الدمى في مسرح العرائس ظاهرة منظورة ، والتي تحرك الشخصيات في المسرح خفية لامرئية . هناك الدمى دمى فعلا لانها محرومة من الحرية ، وهنا الشخصيات شخصيات حية فعلا لانها تتمتع بالحرية ، او على الاقل بوهم الحرية . ونحن نتكلم عن براعة محفوظ اكثر مما نتكلم عن فنه لاننا نشعر أن مهمه في « اولاد حارتنا » لم تكن خلق الشخصيات او اعادة خلقها ، بل تحويرها بحيث تبقى مطابقة لذاتها حتى وان تغيرت اسماؤها وتغير السياق التاريخي ، الزماني والمكاني ، الذي تتحرك فيه . نتكلم عن براعته اكثر مما نتكلم عن فنه لان همه الاول كان ادخال الجمل من سم الخياط ، أي قسر شخصيات تاريخية طمحت الى تغيير مخططات العالم على الدخول في مخطط « حارة الجبلاوي » الضيق والمتعنت .

لقد قلنا في مستهل هذا المقال ان المحاولة التي اخذها محفوظ على عاتقه محاولة جبارة . وهذا بالفعل أقل ما يمكن ان يوصف به اي مشروع لاعادة كتابة تاريخ البشرية في صورة رواية أو ملحمة روائية واذا كان النجاح قد حالف محفوظ في القسم الاول من «أولاد حارتنا»، في قصة أدهم ، الا انه ابعد ما يكون في الاقسام الثلاثة التالية عن ان يكون قد أعاد كتابة تاريخ البشرية روائيا . والحق ان محفوظ لم يفعل من شيء سوى انه نسخ هذا التاريخ نسخا مع نزر من التحوير ، فالبسه جلابيب اولاد حارة الجبلاوي . والتاريخ اذا ما ألبس الجلباب يبدو ضامرا هزيلا مهما يكن في الاصل عظيما مجيدا .

ولا نستعيد « أولاد حارتنا » شيئا من نفسها الدرامي الاول في القسم الخامس والاخير ، في قصة عرفة . وعرفة هو الاخر نبي ، ولكنه غير مرسل من السماء ولا من قبل الجبلاوي . انه كما يدل على ذلك اسمه ، نبي العصور الحديثة : العلم . وقد سمع عرفة هو الاخر أنين المعذبين من اخوته في حارة الجبلاوي ، فقطع على نفسه عهدا بان يخلصهم من سطوة الناظر والفتوات . وحين كان يسمع بعض اولاد الحارة يصيحون : « أين انت يا جبلاوي ؟ » ، او شعراءها يتغنون بذكرها جبل ورفاعة وقاسم ، كان يتساءل بينه وبين نفسه : ما جدوى الذكريات ؟ ومتى ننتهي من الحكايات التي لم تغد منها الحارة شيئا ؟ وهل تورثنا غير الحسرات ؟

وكان من حق عرفة أن يتساءل مثل هذه التساؤلات ، لانه يملك ، على حد اعتقاده ، قوة لم يحز على عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين فقد اخترع زجاجة متفجرة تقف امامها نبابيب الفتوات وخناجرهم عاجزة مشلولة . ثم انه بات يشك في وجود الجبلاوي اصلا . فهو لا يستطيع ان يتصور ان الجبلاوي على قيد الحياة ، يرى العابثين يعبثون بوفقه وهو لا يحرك ساكنا ؟ ثم انه لم يسمع قط عن معمر عاش طول ذلك العمر ! وحسما لكل نقاش وتردد ، يقرر عرفة أن يقدم على ما لم يجرؤ احد على الاقدام عليه قط : سيذهب لمقابلة الجبلاوي شخصيا وسيطلع منه على حجة الوقف التي لم يطلع عليها احد قط ، حتى ولا ابنه أدهم .

انها كما نرى جريرة آدم ، وأدهم تتكرر . حب المعرفة القتال المودي بصاحبه الى التهلكة . ولكن ليس عرفة هو الذي سيهلك هذه المرة : فالبشرية قد تجاوزت اخيرا بدائيتها . وبالفعل ، حين يفاجيء خادم الجبلاوي عرفة وهو بهم بالدخول ليلا الى خلوة الجبلاوي المحرمة لا يجد عرفة مناصا من قتله ليولي من ثم الادبار . وفي اليوم التالي ضجت الحارة بالنبأ الرهيب : لقد مات الجبلاوي ! علم باقتحام بيته وبمقتل خادمه فمات غما من تجرؤ ذريته عليه ! وانتاب الهلع عرفة . والحق أنه لم يكن يبغي قتل الجبلاوي . ولكن الجبلاوي مات من تلقاء نفسه لمجرد ان احد ابناء ذريته قد تجرأ على اقتحام بيته . فلكأن محفوظ يريد ان يقول لنا ان العلم لم يقتل الله خلافا لكل ما هو شائع .والجبلاوي مات ولم يقتل . مات من تلقاء نفسه بمجرد ان اخذت عرفة الرغبة في أن يعرف وعمر قلبه بالثقة بانه قادر على ان يعرف . ومتى ما تملكت الانسان الرغبة في أن يعرف والثقة بانه قادر على ان يعرف ، فان معرفته لن تتوقف عن حدود حتى ولو أدت الى موت الجبلاوي . والجبلاوي هو الذي وضع في خاتمة المطاف حب المعرفة في قلوب ذريته اذ ضرب على « حجة الوقف » نطاقا من السرية وصحيح ان عرفة مسؤول عن موت الجبلاوي بنوع ما ، ولكن الرغبة التي دفعت به الى محاولة المعرفة لم تكن رغبة شريرة ، لم تكن كرغبة ادريس ، وانما كانت رغبة خيرة ولهدف خير : انقاذ أولاد حارته من سطوة الفتوات وارهاب الناظر . ومثل هذه الرغبة لا يمكن للجبلاوي الا ان يباركها حتى ولو أدت الى موته . ولكأن محفوظ يريد ان يقول لنا ان الله ايضا لا يمكن الا ان يبارك العلم ، العلم الهادف الى تحرير البشرية من سطوة الشر والشقاء ، حتى لو اغتر هذا العلم بنفسه وتطور انه قادر على اجتلاء سر مملكة الله . بل ان الله لا يمكن الا أن يبارك العلم حتى لو طمح هذا العلم في أن يستبدل الله بالانسان سيدا أخيرا على هذا الكون .

وهذا لا يعني ان العلم غير قابل لان يخدم مصلحة الاشرار على هذه الارض . حسبه ان يتجرد من انسانيته . أفلم يتحول عرفة ذاته الى خدمة الشر ويضع نفسه وعلمه تحت تصرف الناظر قدري ؟ وقدري ، كما هو واضح من اسمه ، رمز القوة . القوة الغاشمة التي تشتري العلم او تسيطر عليه حتى تشدد من احكام قبضتها على رقاب المعذبين في هذه الارض . وصحيح أن الخوف هو الذي دفع بعرفة الى الاحتماء بالناظر ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ ان عرفة لم يلتجيء الى الناظر الا ليدفع عن نفسه تهمة قتل الجبلاوي ، ولكن ها هوذا يكتشف بعد أن وضع علمه ونفسه في خدمة قدري ، القوة المستغلة الغاشمة ، انه قد اصبح فعلا قاتل الجبلاوي ، لان قتلة الجبلاوي الحقيقيين ـ وما اكثر قتلته ـ انما هم أولئك الذين يقتلون أولاده ويضطهدون ذريته ويسلبونها عرق جبينها . انهم الفتوات والنظار . ومن يعمل في خدمة هؤلاء يمس قاتلا للجبلاوي مثلهم . وليس من قبيل الصدفة ان تكون عواطف ، زوجة عرفة ، قد هجرته عند التحاقه بخدمة الناظر . فعواطف ، كما يدل على ذلك اسمها ، هي العاطفة الانسانية في الانسان ، وجدانه الذي يميز به الخير من الشر . وعرفة يئس الان تحت وطأة المأساة التي قاد نفسه اليها . فقد أراد أن يحرر بعلمه أولاد حارته من ارهاب الناظر ، فاذا بعلمه يتحول الى سلاح اضافي ورهيب في يد الناظر لتشديد ارهابه واستغلاله لاولاد الحارة . ولهذا لن يكون من هم لعرفة بعد ان اكتشف تناقض وجوده الا ان يهرب من بيت الناظر الذي أمسى بالنسبة اليه ، بمثابة سجن . ولسوف تترنح في عقله فكرة الهرب هذه وتصبح محور وجوده ومنتهى أمله ، ولا سيما بعد ان حلم بان خادمة الجبلاوي جاءت لزيارته تنفيذا لوصية الجبلاوي نفسه . والحال ماذا قالت له خادم الجبلاوي ؟ قالت ان الجبلاوي امرها قبل ان يلفظ الروح ان تذهب الى عرفة وتخبره ان جده مات وهو راض عنه . ولكن كيف يرضى عنه جده وهو قاتله ، او على الاقل المتسبب في موته ؟ ان المرأة ولا شك مخبولة . ولكن ها هي تؤكد ان الجبلاوي ما قتله احد و « ما كان في وسع احد ان يقتله » . وحين رد عليها عرفة بان قاتله هو من قتل خادمه ، أجابته مبعوثة الجبلاوي بغضب : كذب وافتراء !

الجبلاوي اذن راض عن عرفة بالرغم من كل ما فعل ، لانه لم يفعل ما فعل الا املا في تحرير أهل حارته . ولئن كان الجبلاوي قد عمر طويلا ولم يفارق الحياة الا يوم ظهور عرفة ، فهذا لا يعني أنه وعرفة عدوان لدودان لا يجتمعان ولا تجمع بينهما غير خيوط الجريمة . ولئن كان محفوظ يؤكد بأن الجبلاوي مات من تلقاء نفسه ولم يقتل ، فلهذا

التوكيد دلالته الكبيرة ، اذ ليس المهم في نظر محفوظ ان يبقى الجبلاوي أو لا يبقى على قيد الحياة ، وانما المهم ان تبقى روحه وفكرته . ان حياة الجبلاوي لا يمكن ان تستمر في عصر عرفة : هذه حقيقة يقبل بها محفوظ، ولكنه يرى أن عرفة نفسه هو خليفة الجبلاوي والبديل عنه . فعرفة هو « الابن الطيب » للجبلاوي ، ومن واجبه ان « يحل محله » . ولهذا على وجه التحديد مات الجبلاوي راضيا عن عرفة الذي لم يعد له من هدف في هذه الحياة غير ان يرد الحياة الى الجبلاوي .

أهي اذن مفارقة ؟ ربما بدت لبعضهم كذلك . ولكنها ليست في نظر محفوظ بمفارقة . فعرفة عنده من سلالة الانبياء ، من سلالة جبل ورفاعة وقاسم ، ورسالته لا تختلف عن رسالتهم . وقد يتوهم عرفة ، ويتوهم معه الناس ، أنه قاتل الجبلاوي ، ولكن روحه في حقيقة الامر هي من روح الجبلاوي ، وبلقائهما واتحادهما يمكن لحارة الجبلاوي ان تعرف اخيرا الخلاص .

وما يريد محفوظ ان يقوله في خاتمة المطاف لا يكاد يحتاج الى بيان : فالعلم في نظرة قد يخطىء الدروب والمسالك ، وقد يصبح سندا للقوة الغاشمة ، وقد يتسبب حتى في موت الله ، ولكنه لا يمكن مع ذلك ان يكون مبغوضا ولا مكروها عند الله ، لان العلم هو اليوم طريق الخلاص للانسانية ، بل قل نبيها الجديد في عصر نهاية الانبياء واذا كان العلم مطالبا بشيء ، حتى في نظر الله ، فهو أن يسترد انسانيته ونبله بتحرره من سيطرة القوى الغاشمة . وهذا بالضبط ما سيفعله عرفة عندما يقرر العودة الى زوجته عواطف والهرب معها من سجن الناظر . وصحيح ان عرفة قتل في خاتمة المطاف ، قتله الناظر على وجه التحديد ، ولكن روحه لم تمت لانها لا يمكن أن تقتل مثلها مثل روح الجبلاوي ، وتماما كما ان أرواح جبل ورفاعة وقاسم حية لم تمت ولا يمكن ان تموت . ولقد استطاع عرفة ان ينقذ قبيل مقتله الكراسة التي سجل فيها خلاصة عمله . وهذه الكراسة قد أصبحت ملكا لاولاد حارة الجبلاوي . ومن صفحاتها سيتعلمون ، ومن رموزها سيصنعون السلاح الذي به سيهزمون الناظر المستبد وكل النظار المستبدين . ولن يثنيهم عن عزمهم هذا ارهاب الفتوات مهما اشتد وبغى ، فهم واثقون اليوم ان « لا بد للظلم من آخر ، والليل من نهار . ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب » .

بهذه الكلمات المتفائلة التي تترك باب المستقبل مفتوحا تنتهي قصة « أولاد حارتنا » . وما قصة « أولاد حارتنا » كما قلنا الا قصة البشرية التي عانت منذ ان كانت من العذاب والاضطهاد ما لا يمكن حصره في صفحات اي سفر مهما كبر وتعددت مجلداته . وهذه البشرية هي نفسها التي لم تيأس ، كما لم ييأس آدم من الرجوع الى الجنة . وما كان أنبياؤها الا رواد صمودها وأملها . واذا كان عصر الانبياء قد انتهى اليوم ، الا ان نجيب محفوظ يدعونا الى المثابرة على نفس الصمود والامل . فهناك من جهة أولى ذكرى الانبياء ، ومن الجهة الثانية السلاح الذي صنعته البشرية بنفسها : العلم . والعلم استمرار للنبوة ، وباتحادهما ستدرك الانسانية غاياتها .

هذا ما أراد نجيب محفوظ ان يقوله في « أولاد حارتنا » ، او هذا على الاقل ما نعتقد انه اراد ان يقوله . فهل هي صوفية جديدة كما حاول بعض النقاد ان يؤكدوا ؟

لا نعتقد ذلك ، لان نجيب محفوظ مهتم قبل كل شيء ، وبخلاف المتصوفين جميعا ، بمصير الانسان على هذه الارض لا في أي مكان آخر . واهتمامه بهذا المصير هو الذي حداه الى تفسير الاديان تفسيرا اجتماعيا أن صح التعبير . فجبل ورفاعة وقاسم ومن بعدهم عرفة خاضوا معاركهم القاسية من أجل ان يسترد اولاد حارتهم حقوقهم المهضومة في وقف الجبلاوي ويضعوا حدا لاصطهاد الفتوات والنظار واصحاب الامتيازات وكل المستغلين والطفاة . ومثل هذا التفسير الاجتماعي قد لا يحظى بتأييد كل الناس ، تماما كما أن من الناس من لا يقبل بأن يكون عرفة استمرارا لجبل ورفاقة وقاسم . ونجيب محفوظ نفسه غير متحرر نهائيا من هذه التناقضات : فأجمل قصص « أولاد حارته » هي بلا أدنى ريب قصة أدهم . والحال ان أدهم لم يكن يفكر بالوقف بقدر ما كان يفكر بالعودة الى « البيت الكبير » والى حديقته الغناء . وبالمقابل فان جبل ورفاعة وقاسم وسائر اولاد حارتهم على مر الاجيال لم يضعوا نصب أعينهم الا الوقف وحق ذرية أدهم في تقاسم ريعه . ولهذا على وجه التحديد كان عرفة استمرارا لمن سبقوه من اولاد الحارة الطيبين . فلكأن الوقف قد أنسى اولاد الحارة « البيت الكبير » وحلم أبيهم بالعودة الى مقام الجد . ام تراهم لم ينسوه ، وانما هم بريدون ان نصبح كلمة الجبلاوي لابنه أدهم نافذة المفعول :

ـ سيكون الوقف لذريتك .

وهذا يعني ، اذا صح ، ان الوقف نفسه سيستحيل الى ما يشبه « البيت الكبير » يوم يعود فعلا وصدقا الى ذرية أدهم ، بلا فتوات ولا نظار ولا طفاة .

وليس المهم بعد كل شيء ان يكون « البيت الكبير » ضمن حدود حارة الجبلاوي أو خارجها . وانما المهم ان تكون أبوابه مفتوحة للجميع .

هذا على الاقل ما يعتقده نجيب محفوظ ، وهذه هي رؤياه . ونحن لم نحاول الا أن نلم خيوط هذه الرؤيا ونكثفها لنعرضها بالقدر الممكن من الامانة على شاشة ما اصطلح الناس على تسميته بالنقد الادبي وبالرغم من كل الادعاءات فان هذا النقد قد لا يكون مطالبا في بعض الاحيان الا بأن يكون شاشة سالبة لا تريك الا ما يعرض عليها لا أكثر ولا اقل (1) .

جورج طرابيشي

---

(1) في عدد سابق من « الآداب » عرضنا من الداخل ، على شاشة سالبة ايضا ، رؤيا عبد السلام العجيلي التي قد يصح وصفها بانها ميتافيزيقية . وقد ثار علينا أحد المنتقدين (الاستاذ صلاح عيسى) واتهمنا بانقسام الشخصية لاعتقاده بأن عرضنا لرؤيا العجيلي من الداخل يعني تبنينا لها . وهذه ، في الحق ، معادلة مساواة غريبة من نوعها تنسى اول ما تنسى ان الناقد قد يتكلم احيانا لا بصوته وانما بصوت من ينقده .

قصائد ليست محرزة الإقامة

احدث ديوان لشاعر المقاومة

سالم جبران

٢٠٠ ق . ل

دار الآداب